دراسات فنية
مخبر الفنون والدراسات الثقافية
جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان
Algerian Scientific Journal Platform

المجلد: 12 العدد: الأول (2025) ص 142 / 149

المدوّنة الأدبيّة في تلمسان قديماً

The literary blog in Tlemcen in the past

د. مولاي البودخيلي سيدي عبد الرحيم[1]

[1] جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان (الجزائر)، إيميل: moulaytlmdz@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الإرسال:
2025 / 08 / 21
تاريخ القبول:
2025 / 11 / 04

الكلمات المفتاحية:
- ✓ المدوّنة؛
- ✓ الأديب؛
- ✓ الأدب القديم؛
- ✓ فن؛
- ✓ تلمسان.

الملخص:

لا نجزم في حال ما إذا صار موضوع مقالنا بكرا على الدراسات الأدبية والنقدية معاً مشرقاً ومغرباً من عصرنا الحديث والمعاصر بالمثل، وعلى رغم وفرة المدوّنة الأدبية شعراً ونثراً بل ونقداً من فترة قديمة تنحصر بين ثلاث وثلاثين وستمائة إلى اثنتين وستين وتسعمائة هجرية (633-962هـ)، إلاّ أنّ البحث في هذا العالم قد قلّ والدّرس اختفى والتأليف شحّ، فظلّت المدونة أو جزء منها أدباً قديماً على عهدها في مصنّفات قديمة، وهي في حاجة إلى من يؤانسها بالقراءة قبل الدّرس ثمّ الكتابة فالتّأليف فيها إذا أمكن.

Article info

Received
……..
Accepted
……..

Keywords:
- ✓ *Blog;*
- ✓ *Writer;*
- ✓ *Ancient Literature;*
- ✓ *Art; T*
- ✓ *lemcen.*

Abstract :

We cannot be certain whether the subject of our article has become a topic for literary and critical studies alike, both in the East and the West, from our modern and contemporary era. Despite the abundance of literary works, both poetry and prose, and even criticism from an ancient period ranging between 633 and 962 AH (1236-1554 AD), the research in this field has diminished, the study has disappeared, and the writing has become scarce. Thus, the literary corpus, or part of it, remains an ancient literature in its old classifications, in need of someone to accompany it with reading before studying, then writing, and finally composing, if possible.

المؤلف المرسل: مولاي البودخيلي سيدي عبد الرحيم

مقدّمة:

لا يخفى على الباحث والدّارس معاً أنّ موضوعنا، يصل حاضرة من أكبر حواضر العالم الإسلامي، تلك تلمسان عاصمة الجزائر ثلاثة قرون وتسعة وعشرين عاماً، تقلّد الحكم في خلالها سلاطين وملوك وأمراء.

وقد كانت حاضنة للعلوم، منها ما يهمنا من علومها الأدب والنقد بخاصّة، إضافة إلى علوم البلاغة والفلسفة كذلك، نظراً إلى ما تميّز به الأدب القديم في تلمسان من هذا العهد بعموم.

وأخذاً بِما أشرنا إليه سابقاً على أنّ الموضوع باكورة بجدّة في الساحة الأدبيّة والنقديّة على سواءٍ من زمننا وعصرنا، وبالنظر على وجه من الخصوص إلى ما جمعناه وقرأناه وصنفنا منه مئات الأبيات الشعريّة من أشكال نظم مختلفة، تُنسب إلى كثير من الأدباء والعلماء والفلاسفة وغيرهم، حيث جلهم لهم أثر و بصمة على الأقل، فيما كان بالمثل لأدباء زمانهم من أهل الأندلس والمشرق.

ودون أن تثبطنا صعوبة، ولأجل كلّ حافز علمي وسواه، وسمنا مقالنا"**المدوّنة الأدبية في تلمسان قديماً**"؛ وتناولنا في دراسته والكتابة عنه، الإجابة عن الإشكالات التالية: ما هي عيون المصادر المعادن وروافد الأدب القديم في تلمسان؟ وهل لتلمسان مشاهير من الشعراء مفلقين جهابذةٍ خناذيذٍ فحولٍ على شاكلة الأندلسيين والمشارقة؟ وهل نَظَمَ الشعراء في تلمسان مُقلّدين أم مُجدّدين؟ بل قد يتعدد الطرح، وتتنوع الأسئلة والإجابات في مواضع أخرى من المقال إذا دعت الضرورة.

1.مصادر الأدب القديم

أمّا الأهمّ هو المساهمة ولو نزراً في كشف النقاب الذي اِستتر دونه أدب قديم، ووصل هذا الفن أعلامه مع النظر إلى جمالياته وقيّمه وقيمته.

ويمكننا أن نستهلّ مقالنا بالإشارة إلى الأدب القديم في تلمسان من ضمن مصادر أصول ، ونحن نتصّفحُ في بداية العمل رحلة القلصادي؛ قال: «...وأولاهم في الذكر والتقديم... محمد بن مرزوق(ت.842ه)...فلا عليك أن ترى أحسن من لقائه، ولا أسهل من إلقائه، لقي الشيوخ الأكابر، وبقي حمده متعرفا من بطون الكتب وألسنة الأقلام، وأفواه المحابر؛ وعن الأديب الأريب محمّد بن مرزوق، يقول ابن مريم:... الأستاذ المقرئ المجوّد النّحوي اللّغوي البياني العروضي... الآخذ من كلّ فن بأوفر نصيب...» **(القلصادي، 1978، صفحة 96)**.

في نص القلصادي صياغة كاملة وشهادة وافرة في آن واحد، تدلّ على شخصية محمّد بن مرزوق شخصيةً أدبيةً تجمع بين الخطابة والرسالة (... وألسنة الأقلام، وأفواه المحابر)، ويُعزّز الشخصية الأدبية لابن مرزوق ما ورد آنفاً على لسان ابن مريم: (...النّحوي اللّغوي البياني العروضي... الآخذ من كلّ فن بأوفر نصيب).

ويكاد يلتقي ابن مريم في وصفه لابن مرزوق مع ما ذهب إليه علي بن بسام الشنتريني في ذخيرته عندما أورد فيما معناه :أنّه إذا أردت أن تكون عالماً فاختص لفن أو علم واحد، وإذا أردت أن تكون أديباً فخذ من كلّ شيء أحسنه؛ فابن مرزوق كان بحراً من علوم عصره، ولم يتوان أن أخذ بالأدب نثراً وشعراً ، حيث له من الأراجيز ما لا يزال جديداً على الدّرس الحديث والمعاصر أدباً ونقداً؛ قال ابن مرزوق عندما كرب من المنية في الزهد والتصوّف: [بسيط]

إن كان سفك دمي أقصى مرادكم ❁ فما غلتنظرة منكم بسفك دمي.

(مخطوط، د.ت، صفحة 32)

ومن أعمدة الأدب القديم في تلمسان يذكر القلصادي في رحلته عيسى الرتيمي ويُؤثرُ عنهُ: «لو كان في قدرتي أو أمكنني أن أعلمك كلما عرفته في آن واحد لفعلت، ولم نتعبك بالغدو والرواح إلي، كما قال القحطاني: [طويل]

ففي شربة لو كان علمي لسقيتكم ❁ ولم أخف عنكم ذلك العلم بالذخر.»

(القلصادي، 1978، الصفحات 98-99)

يتّضح من النص السابق، أنّ شيخ القلصادي من رواة الشعر وحفظتها المعروفين بمصطلح المفلقين، وهو أيضا من أهل الحكمة لِما يحمله البيت الشعري الذي اِستشهد به في إظهار حلمه على تلميذه،أن يتعب في رحلته إليه طلباً للعلم، ثم ما تدلّ عليه التؤدة والروية التي كان عليها الرتيمي، والذي تذكره مصادر أخرى ، تعرض إلى قرضه الشعر وعلو كعبه في الترسل، وحذقه بالبلاغة ، وإتقانه للعلوم النقلية والعقلية معاً.

ونؤكد في مقالنا الإلتفاتة التي خصّها القلصادي في رحلته، ليُفيدنا بمجموعة من العلماء في تلمسان منهم الأدباء خصوصاً، نذكر ثلة منهم ، أمثال محمّد الشريف (ت.847ه) دفين باب الجياد، باب نظم في محلّه أحد جهابذة الشعر في تلمسان، يوسف الثغري، قال: [الكامل]

تاهت تلمسان بدولته ❁ على كلّ البلاد بحُسن منظرها الجليّ

راقت محاسنها ورّق نسيمها ❁ فحلا بها شعري وطاب تغزلي

عرّج بمنعرجات باب جيادها ❁ واِفتحْ بها باب الرّجاء المقفل.

(المقرّي، د.ت، صفحة 165)

ويمكننا أن نصنّف هذا الشعر إلى عدّة أغراض أو فنون أو أضرب أو أشكال على اختلاف المفهوم والمفاهيم الاصطلاحية؛ الّتي نقصد بها في العموم موضوعات الشعر، فالنّص الشعري يندرج ضمن وصف الطبيعة، والأقرب ما جمع فيه الشاعر بين أنواعها من طبيعة طبيعية وصناعية؛ طبيعية من قوله: «كلّ البلاد بحُسن منظرها الجليّ»: صامت وسائل وحيّ وجامد؛ أمّا المصنوعة فبعمرانها لما تقوم عليه الدولة من حضارة عمرانية من ذلك قول الثغري: «تلمسان بدولته»، دون أن ننسى ما ورد من ألفاظ أخرٍ، تدلّ على وصف الطبيعة بأنواعها منه: (رّق نسيمها... منعرجات باب جيادها)؛ وقد يُصنّف النّص الشعري للثغري من ضمن الوقفة الطللية، الّتي كثيراً ما اِستفتحت بها القصيدة العمودية بالخصوص، إضافةً إلى أنّ النص يمكن أن يصنّف من غرض الغزل، وفقا لِما ورد بدليل لفظ الشاعر: «فحلا بها شعري وطاب تغزلي»؛ ففي القول ما يثبت مذهب الشاعر أو الأديب في أدبه، وهي خصيصة وشيجة إلى الأدب القديم عند العرب كافة والأدب في تلمسان بخاصّة.

ومن ثلة ما نذكره أيضا في هذا المقال الذي سيق في رحلة القلصادي من أهل الأدب في تلمسان يوسف الزيدوري، له نصيب من الحضور في أنفس المصادر والروافد، منها عنوان الزمان للبلوي أحمد بن علي، مخطوطة بالمكتبة الوطنية بتونس (**ابن مريم، 1908، صفحة 305**)، ومخطوطة بدار الكتب القومية بمصر (**القلصادي، 1978، صفحة 231**)؛ وإلى جانب الزيدوري يوسف، تحفل رحلة العبدري بأسماء الأدباء في تلمسان أمثال محمد بن النجار (ت.846ه) (**مخلوف، د.ت، صفحة 255**)؛ يقول محمد بن مخلوف صاحب مصنّف الشجرة الزّكية عن ابن النجار (أبو عبد الله محمد بن أحمد النجار التلمساني الفقيه العلامة الأصولي...)، وهو الآخر تذكره من المصادر النفائس، وتصفه بِما وُصف سابقوه من أدباء تلمسان، الذين أشرنا إليهم من قبل.

ويُواصل صاحب الرّحلة العبدري عرضه لعالم وأديب أريب بتلمسان، دفين منطقة العبّاد، أحمد بن زاغو(ت.845ه)، وعنه قال علي القلصادي: «وآخر بيت أنشد في يوم جمعة بعد خروجنا من الصلاة، ولم يشهد بعدها جمعة أخرى؛ قال ابن زاغو: [وافر]

تمتع من شميم عرار نجد ❁ فما بعد العشيّة من عرار

شعر خليلي ومذهب أدبي قائم بذاته في القديم، وموصول إلى غرض شعري أَلِفهُ نظم الجاهلين والأمويين والعباسيين والأندلسيين ومن سار على نحوهم، وهذا الغرض في ظهوره وتطوره اِشتهر به أبو العتاهة، حيث قال:

الناس في غفلاتهم ❁ ورحى المنيّة تطحن

إنّه بيت من أبلغ الشعر العربي القديم، وأدّقه معنى، وأوضحه صورة، وأوثقه على حكمة صاحبه، وخبرته وتجربته في الحياة التي أفضت به إلى الزهد كموضوع ، يشفع لنا في هذا المقال ما أردنا تأكيده على حنكة الشعراء أو الأدباء في تلمسان، إذ منهم ابن زاغو الذي يكاد يعبّر عن مذهبه الزهد في الحياة والشعر، بمثل ما عبّر عنه أقرانُه من شعراء عصره مغرباً ومشرقاً.

ويفيض القلصادي عن علمٍ من أعلام تلمسان قاسم العقباني (ت.854هـ) (**التنبكتي، 1317هـ، صفحة 296**)، وهو من أبرع أدباء تلمسان إذا نظرنا إليه من هذه الزاوية؛ يقول صاحب الرّحلة: «... انفرد بفنّي المعقول والمنقول، واتحد في علمي اللسان والبيان وهو فيما عدا ذلك يفوق الصدور... فأفاد الأفذاذ وأمتع الجهابذة والنّقاد، وأسمع الأسماع ما اشتهى كلٌّ منها وأراد...» (**السّراج، د.ت، صفحة 181**)، ومن الّذين تتلمذوا بين يدي العقباني، لم يغفلوا ذكره، والإشادة به، والشهادة له بالعلم والأدب معاً، حيث كان بمكان في نوازل المازوني (**الكرخي، 1957–1961، صفحة 101**) وفهرست الونشريسي (**البصري، د.ت، صفحة 60**)، وأسهم في التصوّف أرجوزة مدوّنة في عدّة مصادر عيون للأدب القديم في تلمسان من وجهة أخرى.

ويرد في 'درة الحجال' (**ابن خلكان، د.ت، صفحة 289**) من الأدباء المبرزين في تلمسان أبو الفضل محمّد بن الإمام (ت.845هـ)، قبل ذكره في عيون من مصادر للقلصادي والمازوني والونشريسي والبكري وابن شاكر الكتبي وغيرهم، قد يجمعهم قول الحافظ التنسي في محمّد بن الإمام: «صدر البلغاء وتاج العارفين، وأعجوبة الزمان...»؛ وينسب دائما إلى تلمسان كمنبع من منابع الأدباء والأدب والعلم بهما، سلك درب المتقدمين و المتأخرين معا ،على منوال معاصريه في الأندلس والمشرق ومن سبقهم، حَذَا حَذْوهم لأساليب العرب القديمة.

ثم يُدوّن القلصادي ما دوّنته روافد عيون من المصنّفات المعاصرة أو القريبة منها، كالذي حضر أديباً وناقداً في تلمسان، وسجلته أنامل خير الدين الزركلي في معجمه 'الأعلام'، محمّد بن العباس الشهير بالتلمساني (**الزركلي، د.ت، صفحة 53**) وسليمان البوزيدي الشريف التلمساني كما ورد في غير هذه الأصول، بل شهدت لهما المدوّنة الأدبية الّتي أُثرت عنهما، ودوّنتها مختلف المصادر والمراجع في عصرهم وبيئتهم؛ قال عنه ابن غازي في فهرسته: «سليمان بن الحسن البوزيدي الشريف التلمساني أبو الربيع عالم محصل محقق... وكانت له إشكالات راسَل في شأنها عالم تونس ابن عقاب فأجابه عنهما، أخذ عنه أبو محمّد الورياغلي» (**ابن مريم، 1908، صفحة 105**).

ويبدو جليًّا من خلال هذه النصوص التي وردت معنا، ما يدلّ على نهضة أدبيّة ورقيّ ثقافي وعلمي شهدته تلمسان، تلألأت فيه وجوه أدبيّة، لم تسلم منظوماتها من خصائص وملامح الشعر الأثيل المعروف بالشعر العمودي، حيث حاول شعراء تلمسان على سبيل التوضيح والتفصيل في موضوعنا هذا، حاول الشعراء شرف المعنى وصحته وجزالة اللّفظ واستقامته والإصابة في الوصف والمقاربة في التشبيه والمناسبة بين المستعار له والمستعار منه، والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخيُّر من لذيذ الوزن ومشاكلة اللّفظ للمعنى وشدّة اِقتضاءهما للقافية حتى لا منافرة بينهما؛ فهي حاضرة في شعر تلمسان حضورها في الشعر العربي قديماً.

وبناءً لِما سلف ذكره، فإنّ المدوّنة الأدبية في تلمسان لم تقتصر على الثلة التي سبق الإشارة إليها، ولم تصل ما وسم عنواناً للمصادر السابقة فقط، إنّما المهم في هذا المقال هو أنّ من الأدباء والأدب في تلمسان كثير، ومن أدبهم وفرة، كلّهم دوّنتهم مصادر تكشف عن طابع أدبي جمالي، لكن من أسرار هذا الأدب أو الشعر ، هو أنّه مغمور لم يطرقه باحث أو دارس على الأرجح.

و كثيرة هي المصادر العيون الأصول، التي واكبت النهضة الأدبيّة في تلمسان، ولعلّ في كثرة هذه الروافد رقيًا وازدهاراً في مدوّنة الأدب على وجه من العناية.

وتظلّ موضوعات الأدب القديم في تلمسان مرتبطة بأسماء شعراء ذاعت شهرتهم في خارج تلمسان بمناطق مختلفة من الجزائر في تلك الحقبة الزمنية، منهم يوسف بن يخلف الجزائري (القرن السابع الهجري)، وأحمد بن عيسى الغماري (ت.682هـ)، وأحمد بن عجلان القيسي

(ت.675هـ)، ويحي القرشي السطيفي (ت.677هـ)، وعبد المنعم الغساني (ت.670هـ)، وغير هؤلاء لا يسعنا المقام لحصرهم جلّهم، إنّما الفود من ذلك هو الشخصية الأدبية ونتاجها الأدبي في مضان أمّهات المصادر على وجه من الأهمية والخصوصيّة؛ ولذلك نحاول في إطلالة- لا على سبيل الحصر- إجلاء موضوعنا بالإشارة إلى بعض الأدباء، منهم الشعراء، مع تبيان أغراض القول التي نظموا فيها وعلاقتها بالمنحى الفنّي الجمالي الذي تميّزت به.

2.خصائص المدوّنة الشعرية في تلمسان قديما

والمتصفح لذخائر المغرب العربي، يمكنه أن يُصادف في أبحاثه مصنّفاً، بمكان وأهمية بالغة لموضوع المدوّنة الأدبيّة في تلمسان، على أنّ الذي ألّفه أحمد الغبريني واسماً إيّاه 'عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فيالمائة السابعة ببجاية'، يُوحي بموسوعية التّصنيف، وقيمته التي اِرتبطت بكثير من العلماء الأدباء بخاصّة، يتجاوز إحصاؤهم الخمسة بعد المائة، إن لم نقل أغلبهم وصل تلمسان، ونظم فيها شعراً إضافةً إلى ما آثره أحمد الغبريني من نثر، يمكن للباحث أو الدّارس أو المختص أن ينظر إليه مستقبلاً.

وممّا يجب تأكيده في هذا المضمار، هو أنّ أغلب ما ورد في 'عنوان الدراية'، لم يتخلف عن ذكره مجمل الكتّاب والمؤلّفين والمصنّفين والموسوعيين في أعمالهم التي وصلتنا، لنشير بذلك إلى 'نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان' للتنسي، و'البستان' في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم و'بغية الرواد وذكر الملوك من بني عبد الواحد' ليحي بن خلدون، و'ديوان المبتدأ والخبر' لعبد الرحمن بن خلدون، و'نفح الطيب' للمقرّي؛ والاستشهاد بمدوّناتهم الأدبية في تلمسان، حِمْلُ كتبٍ ومؤلفاتٍ بل مصنّفاتٍ، يضيق مقال موضوعنا استفاء هذا الحِمْلِ، بل نبذُلُ من سَعة درسنا، استبيان كُنْهِ موضوعنا في بعض النصوص الأدبية التي ساقها أحمد الغبريني في 'عنوان الدراية'، عسانا نَقْضِ حاجتنا العلمية ومراد القارئ والمختص سواءً.

ولذلك قال أحمد الغبريني عن يوسف بن يخلف الجزائري: «... الأستاذ الأديب النّحوي اللّغوي... له علم بالعربيّة: اللّغة والنّحو والأدب... وأمّا علم اللّغة والنّحو والأدب فكان فيه جيّداً، ... ويعرف فيه شعر حبيب والمتنبي والأشعار الستة والمعرّي والحماسة لغير واحد، ويقرأ فيه من الأدب المقامات والأمالي وغير ذلك من الكتب الأدبية والنّحوية واللّغوية...» (**الغبريني، 1981، صفحة 103**).

لقد اتّضح من نص الغبريني أنّ يوسف بن يخلف نحى التعليم، برتبة أديب نحوي، وعالم بالعربيّة بارع فيها، مذهبه الأدبي، الشعر العربي القديم ذوقاً ونظماً، وروايةً وشرحاً، وقد عاصر يوسف بن يخلف في القرن السابع الهجري أديباً جزائرياً آخر، أبو العباس أحمد بن عيسى الغماري (ت672هـ): «... له علم بأصول الفقه وحظّ من أصول الدين ومشاركة في علم الأدب... وكان له لسان يستنزل به العصم وكان جاداً طلباً مناصياً للأمراء ومناصفاً لهم وسيُوسًا مع ذلك لهم»(**الغبريني، 1981، صفحة 112**).

فالملحظ من ترجمة الغبريني أنّ الغماري بمنزلة أدباء عصره علوًّا وهمّةً، عالمٍ بالأدب وملّمٍ بجادة النثر، حذقٍ بفنّ التّرسل حجةً وإقناعاً، ولبقٍ كيّسٍ من حيث السياسة والخطاب والمناظرة، لا نشك على أنّه من أبرع من كتب في الرسائل السلطانية الديوانية، التي عنى فيها المترسلون بالأغراض أو الموضوعات السياسية، تلك الموضوعات،ألفها أدباء الأندلس والمشرق العربي القديم على السواءِ، ومن شواهد نثر الغماري ما عُرف بالملحة، حيث كان مُكثراً فيها؛ يقول عنه الغبريني: «... وملح جوابه أنّ لما كان ببجاية في ولايته الثانية، ونزل أمير المؤمنين المستنصر على قسنطينة وجه عنه، واِعتنى به وسأله عن بجاية وأهلها فأجاب بِما يليق به الجواب ثم قال له الملك يا فقيه: سمعنا أنّ والي بجاية وأهلها لو أراد أن يبنيها لبنةً فضةً ولبنةً ذهباً لفعل، فقال له مبادراً: يا مولانا يكون ذلك بِالتفاتكم إليها، وعطفكم عليها فسكت وهذا جوابٌ حسنٌ مانعٌ لمقصد الملك بسهولة مأخذٍ» (**الغبريني، 1981، صفحة 113**).

وممّا يُعزّز موقفنا في أنّ الغماري كان أديباً بحق، فهو على أنصار القدماء الذين أخذوا بمذهب المتقدّمين في الأدب والنقد، ولم يرفضوا منوال المتأخرين من أهل عصرهم، في الانتصار للتجديد والابتكار والإبداع أدباً ونقداً؛ يقول الغبريني: «... وكان رحمه الله يثني على الفخر كثيراً- *يُجيد النثر بمثل إجادته قرض الشعر وما آثر النظم فيه من غرض الفخر؛ أي إنّه من المكثرين في شعر الفخر من عصره*-، ولا يرى له نظيراً، وكان يؤثر قراءة كتبه على غيرها من كتب المتقدمين والمتأخرين» (**الغبريني، 1981، صفحة 113**)؛ وإنّ من الشعراء الجزائريين الذين أدركوا العاصمة تلمسان يحي القرشي السطيفي (ت.677هـ)، فمذهبه في الشعر العربي القديم زهد، وأكثره تصوّف، ولذا فالغرض الشعري في نظمه، دلالاته ألفاظ بمعانٍ يرمز إليها اسم ليلى متفشياً، ذائعاً، شائعاً في شعر التصوّف عند العرب قديماً، ينمّ في خلاله يحي السطيفي عن حبّه الإلهي بشظف، وله، وتوق إلى إدراك محبةٍ، اِتقدت لها مشاعره، وتأجّجت، وفنَتْ فيها روحه وذاتهُ؛ يقول:

جلتْ لك ليلى من مُثنّى نقابَها ❁ طريقًا وأبْدت لمعة من جمالها
فطبْتَ بها عيشاً وتِهْتَ لذاذة ❁ وفيّاك الإلماعُ برْدَ ظلالها
فكيف تَرَى لَيْلَى إذَا هِي أسْفَرت ❁ ضُحَاءًا وأَبْدَتْ وَارِفًا مِن دَلاَلِهَا
وكيف بِها إنْ لمْ يَغِبْ عنَّا شَخْصُهَا ❁ ولم تَخْلُ وَقْتًا منْ مَنَالِ وِصَالِهَا
وكيف يكون الأمرُ إنْ أنت كنتها ❁ وكانتك تحقيقاً فحُلت لِحَالِهَا.

(**الغبريني، 1981، صفحة 119**)

ولا تخلو المصادر من إيراد أسماء الأدباء وعلى رأسهم الشعراء منهم عبد المنعم بن عتيق الغساني (ت.670هـ)، ممّن كان له باع في الشعر العربي القديم، وصلة موثوقة به إلى تلمسان عاصمة الجزائر في تلك الحقبة من الزمن؛ ودون أن نسهب في ذكر شعره الوفير، نكتفِ بقوله:

فيا ليتَ شعري اين أو كيف أو متى ❁ يُقدّرُ ما لابدّ أن سيكونُ.

(**الغبريني، 1981، صفحة 124**)

واضحٌ من البيت أنّ الغساني بمكان شاعر، كما هو جليّ مذهبه الأدبي أو الشعري الحكمي والزهدي، إنّما يدلّ معناه الختامي على إيمانه بالقدر والقضاء وتسليمه بحتمية الغيب وحجبه؛ يقول في موضع آخر من نظمه متأثراً في ذلك بالقرآن الكريم مقتبساً منه:

إلى يوم لا يغني عن المرء منطقٌ ❁ فصيحٌ ولا يُدلي البليغُ بحجتِه
ترى الناس فيه بين باكٍ وصارخٍ ❁ وذاكرٍ ما قد فات من فرْطِ زلّتِهِ
فكلٌّ به حيرانُ ينذُبُ شجوَهُ ❁ وسكرانُ لا من خمرةٍ بل بغمْرَتِهِ.

(**الغبريني، 1981، صفحة 125**)

وإذا تمعنا في مصنّف محمّد بن عبد الله التنسي (ت.891هـ)، وهو ذائع صيته من الشعراء، له نظم فائق، وله جمع لشعر كثير من الشعراء، عاصروا عاصمة الجزائر تلمسان، فتناثر شعر هؤلاء ، في ثنايا الكتاب نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان للتنسي، حيث نزل عند أسماء شعراء مستشهداً ببعض أشعارهم، أمثال محمّد بن أبي جمعة التلالسي (**التنسي، 1985، صفحة 27**) ومحمّد بن يوسف القيسي الثغري (**ابن مريم، 1908، صفحة 31، 222**) ومحمّد المقرّي (**ابن مريم، 1908، صفحة 254**)، على أنّنا نصل في تتمة مقالنا إلى عالم وشاعر تلمسان في زمانه محمّد بن عبد الكريم المغيلي.

كما نشير إلى أنّه اِجتمعت مجمل المصادر بخاصّة على الترجمة لهؤلاء الأدباء، والشفاعة لهم ببعض ما أثّر عنهم، وروي في عديد المدوّنات الأدبية من زمن تلمسان، وبيئتها الحضارية.

ومن أملح ما نلحظه قبل خاتمة مقالنا هذا، شعر أسس له كعب بن زهير في بردته، كما البوصيري شرف الدين، إلاّ أنّ هذا الفنّ لا يضيره شعر من حيث كثرته، بل صار سنة في تلمسان على عهد الملك أبي حمو الثاني، يحتفي به في كلّ عام من مولد النبيّ محمّد- صلى الله عليه وسلّم- ، فيجتمع الشعراء من كلّ صوب وحدب، يتنافسون في نظم المولّديات، موضوعا مستقلا ، قائما بالقصيدة نظما، في مدح النبيّ المصطفى في قصائد، اِشترك فيها معظم شعراء تلمسان، إذ منهم الملك أبو حمو الثاني (التنسي، **1985**، **الصفحات 165-168**)، يقول:

وأصبو إلى أرض الحبيب ومن بها ❁ متى ما سرى عرف النسيم الحجازي
رعى الله دارا بالحمى قد عهدتها ❁ وسقى رثاها صوبُ مُزنٍ سماوي
فيا ليت شعري والديار قصِيّةٌ ❁ متى تسمح الأيام لي بلقا الحيّ
عسى الدّهر يدنيني ويسمح باللقا ❁ فيشفي غليل القلب من ذلك الريّ
وتالله ما لي غيركم إن هجرتم ❁ فهجركم يردي ووصلكم يحيي
بمولده قد أشرق الكون كلّه ❁ وكلّ سنى شمس وبدر ودرّي
سلام على من بالبقيع وبالحمى ❁ سلام على البدر المنير التهامي.

(حاجيات، 1974، الصفحات 362-364)

والملحظ أيضا هو أنّ الشاعر التلمساني يوسف القيسي الثغري، كان مكثراً في فنّ المولّديات، وله ما يلتقي فيه مع غيره من شعراء تلمسان بخصوص وشعراء العرب قديماً، حيث يُعدّد هو الآخر وفي قصائد عديدة، يذكر فيها مناقب النبيّ من خصال حميدة وشمائل فاضلة؛ يقول من قصيده:

يتنزل الروح الأمين به على ❁ خير الورى صلّوا عليه وسلّموا
شمس الرّسالة والنبوّة والهدى ❁ بدر الجلالة نورها المتجسّم
رفعت لك الحجب العظيمة فاعتلى ❁ لك للعلا ذاك المقام المعظم
ما لي سوى حبّي إليك وسيلة ❁ ونظام مدح في علاك ينظم
والفخر أعظم والعلا مؤثل ❁ والفضل أكمل والعطاء متمّم
وكأن سابحها عقاب كاسر ❁ وعليه من أسد الفوارس ضيغم
وإليك من بدع البيان بديعة ❁ قد حلّ فيها السحر وهو محرّم
روض من الآداب جِيد بجودكم ❁ فغدت لكم أزهاره تبتسم.

(التنسي، 1985، الصفحات 171-178)

يتقاطع هذا المدح الشعري وقواعد عمود الشعر الذي سُقناه بالحديث من قبل، فالبحر الخليلي حاضر بتفعيلاته الطويلة، الّتي شاكلت اللّفظ والمعنى الشريف الصادق، صدق ما تحلى به النبيّ، وتجمل خلقاً؛ ودون أن يخرج الشاعر عن المألوف من الألفاظ في غرض المدح، على أنّ شخص النبيّ بصفات يعدّدها الشاعر في الوحي أو النبوّة والهداية، والرِفعة والعُلا والأثالة والفضل والعطاء والجرأة والإقدام والفروسيّة، كلّها تدلّ على انصراف الشعر في تلمسان إلى غرض المدح، وما ينضوي عليه الفنّ الأدبي من جماليات فنّية للغة تحضر فيها التشبيهات والاستعارات والأوصاف عموماً، على نسق شعري قديم مِنواله عمود الشعري العربي الذي نظّر إليه المرزوقي (ت.421هـ) في مقدمته، إضافةً إلى ما جدَّ إليه النظم في تلمسان من أغراض قول مختلفة ترقى إلى التباين في أحايين أخرى.

الخاتمة

وممّا نخلص إليه في هذه الخاتمة هو أنّ المدوّنة الأدبيّة موضوع خصب وثري إلى أبعد ما يتصوره المختص بأوّل، أما الباحث والدّارس، فيجد كلّ منهما نفسه، بإزاء غنى حقل أدبي حافل بالأدب القديم، شعرا ونثرا ، وما يجري عليهما؛ ويستنتج أيضا لموضوعنا أنّ ما تعلّق بالشعر خاصّة درسنا في تلمسان، أبعد موصولاً إلى مصطلحات أدبيّة ونقديّة قديمة، والقرائن التي تشفع ذلك، مرسومة في مصادر، معادن، وروافد نفائس، بها من منظوماتهم البيت والبيتان والنتفة والمقطعة والقصيد والقصيدة والقريض والعمودي والمخمسات والرّجز والموشح والزجل، واستوفى فيها الشعراء أغراض القول كاملة ، وهضموا معانيها تقليدا و ابتكارا، و نحتوا من لغتهم العربية فنا وجمالاً وعلمًا وحضارةً؛ ودون أن ننسى ما اِزدانت به مصادر، أدرجنا منها قلّة موازاة مع غيرها، لأنه يتعذّر علينا حصر الشعر برمته في هذا المقام، تاركين فرصاً لغيرنا من المختصين والباحثين والدّارسين، قد يسهموا فيما أغفلناه، وقد يُسدّدوا ما سقطنا فيه وزللنا، ونحن في هذا وفي ذلك يُجاذبنا الأمل كلّ الأمل في إحياء التراث الأدبي القديم للعرب والمسلمين بتلمسان على وجه من الإفادة بخاصّة.

قائمة المصادر والمراجع:

1. إبراهيم الأصطخري، الكرخي. (1957–1961). *معجم المؤلفين*. (جزء8). دمشق– سوريا: مطبعة الترقي.
2. ابن خلكان. (د.ت). *درة الحجال في أسماء الرجال (ذيل وفيات الأعيان)* (جزء2). (تحقيق: حمد أبو النور). تونس: المكتبة العتيقة. القاهرة– مصر: دار التراث.
3. أبي الحسن علي القلصادي الأندلسي. (1978). *رحلة القلصادي*. (تحقيق: محمّد أبو الأجفان) تونس: الشركة التونسية للتوزيع.
4. أحمد الغبريني. (1981). *عنوان الدراية* (ط2). (تحقيق: رابح بونار). الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
5. أحمد المقرّي. (د.ت). *نفح الطيب* (جزء1). (تحقيق: محمّد محي الدين عبد الحميد). بيروت– لبنان: دار الكتاب العربي.
6. *توشيح الديباج وحلية الابتهاج*. (د.ت). (رقم: 13767). تونس: مخطوط المكتبة الوطنية.
7. التنبكتي. (1317هـ). *نيل الابتهاج بتطريز الديباج*. فاس.
8. الحسن البصري. (د.ت). *كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج*. (رقم: 9300). تونس: مخطوط بالمكتبة الوطنية التونسية.
9. خير الدين الزركلي. (د.ت). *الأعلام* (ط2) (جزء7). مصر.
10. عبد الحميد حاجيات. (1974). *أبو حمو موسى الزيّاني*. الجزائر.
11. محمد بن مريم. (1226هـ/1908م). *البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان*. (تحقيق: محمد بن أبي شنب) الجزائر: المطبعة الثعالبية.
12. محمّد الأندلسي السّراج. (د.ت). *الضوء اللاّمع لأهل القرن التاسع*. (جزء5). بيروت– لبنان: مكتبة دار الحياة.
13. محمّد التنسي. (1985). *نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيّان*. (تحقيق: محمود بوعياد) الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب والمكتبة الوطنية الجزائرية.
14. محمّد مخلوف. (د.ت). *شجرة النور الزكية*. مصر: المطبعة السلفية.